

يونا ليس في مصر

كاتب هذا المقال المرحوم الدكتور وهيب كامل ، وقد سلمه إلى مجلة قبل وفاته بأسبوعين في يناير سنة ١٩٥٧ . والدكتور وهيب كامل معروف لقراء هذه المجلة . وقد كان لموته المفاجئ رنة أسف شديد في الأوساط العلمية .

تخرج الفقيه في كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٩ ، من قسم الدراسات إنقديمة وحصل منه على درجات الماجستير عام ١٩٤٢ ، ثم حصل من جامعة لندن على درجة الدكتوراه ببحث عنوانه The Sources of Plantine Comedy

ونشر الفقيه كتباً وأبحاثاً عديدة منها - باللغة العربية - هيرودوت في مصر (دار المعارف ١٩٤٦) ، وديودور الصقلي في مصر (دار المعارف ١٩٤٧) ، وإسترابون في مصر (مكتبة الأنجلو ١٩٥٣) ، وأميانوس ماركاينوس في مصر (مكتبة الأنجلو ١٩٥٥) . كما نشر أبحاثاً ومقالات عديدة باللغة العربية والإنجليزية ، ظهر الكثير منها بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

والمجلة إذ تنشر لقرائنا هذا البحث ، تحيي ذكرى مؤلفه الفقيه الكريم وتسال الله له خير الجزاء بقدر ما قدم للعلم والمتعلمين .

كان يونا ليس أقنع شعراء الهجاء عند الرومان ولعله أبرز شاعر هجائي في العالمين القديم والحديث جميعاً . أخرج في القرن الثاني للميلاد ست عشرة قصيدة هجائية . أصدرها في خمس مجموعات على فترات متقاربة . ولا نعرف من سيرته إلا النذر اليسير نستنبطه من أبيات شعره التي تعتمد فيها أن يخفي ملامح شخصيته وراء ما يعالج من موضوعات . ولعل استخفاؤه هذا كان نتيجة للخوف مما يتصدى له الهجاءون عادة من بطش الأباطرة . أو لعله كان زهداً في التحدث عن نفسه الجزئية وظروفه القياسية ، أو لعله كان موضوعياً ، يؤثر إبراز الموضوع الذي يتناوله ويفرض على ذات نفسه أن تتوارى فلا تلوح من خلال ما يصور من مخازي المجتمع الذي يهجوّه .

وتضم المجموعة الأولى القصائد من ١ - ٥ . وقد وردت في القصيدة

الأولى إشارة إلى نبي ماريوس پريسكوس^(١) الذى لم تنته محاكمته إلا سنة ١٠٠ م . فلا بد أن تكون هذه المجموعة قد صدرت بعد هذا التاريخ . وثمة إشارة أخرى ، وردت فى القصيدة الثانية ، إلى حملات الإمبراطور أوتو إلى أنها « تستحق أن تسجل فى الحوليات الحديدية والتاريخ الحديث^(٢) » وقد وصف المؤرخ تاكيتوس هذه الحملات فى « تاريخه » الذى صلب فيما بين ١٠٤ و ١٠٩ ولعله أشار إليها أيضاً فى حولياته وقد كان متوفراً على إصدارها حوالى ١٠٩ . فالأرجح أن تكون هذه المجموعة قد صدرت حوالى سنة ١١٠ .

والمجموعة الثانية قاصرة على القصيدة السادسة وهى كبرى قصائده . وفيها إشارة إلى زلزال فى الشرق^(٣) ؛ فقد حدث زلزال فى أنطاكية فى ديسمبر سنة ١١٥ . ولا بد أنه كان مادة للحديث فى روما فى السنة التالية . فالأرجح أن يكون هذا الكتاب قد صدر سنة ١١٦ .

وتضم المجموعة الثالثة القصائد ٧ — ٩ . وقد أعلن الشاعر فى أولها « أن الأمل فى الأدب والدراسات الأدبية يتوقف على قيصر لأنه » وحده يحترم ربات الفنون وهن فى هذا العصر حزينات^(٤) . وهى تحية لعل الشاعر قد استقبل بها عهداً جديداً للإمبراطور جليديد يرعى الفنون ويعين الفنانين . وأخرى بهذا الإمبراطور الجليديد أن يكون أديانوس وقد دخل روما سنة ١١٨ هـ وتضم المجموعة الرابعة القصائد ١٠ — ١٢ وليس فيه من الإشارات ما يعين على جلاء سيرة الشاعر .

وتضم المجموعة الخامسة القصائد ١٣ — ١٦ . وقد كتبت القصيدة ١٣

(١) ١٠١ ، ٤٩ — ٥٠ « إن ماريوس فى منفى يجرع الخمر من الساعة الثانية بعد الظهر ، ويرتع فى غضب السماء ، أما أنت أيها الولاية فقد كسبت القضية ولكنك تبيكين » . وقد طالبت ولاية أفريقية بمحاكمة ماريوس پريسكوس فأدين بتهمة الرشوة وسوء الإدارة ونفى . وقد ورد وصف المحاكمة فى رسائل بلينيوس (المجموعة الثانية ، الرسالة ١١ ، ١٢)

(٢) ١٠٢ ، ٣ .

(٣) ٤١١ ، ٦ « إن المدن تهتز ، والأرض تغوص » . راجع فى تاريخ الزلازل « حرب تاريانوس الآثرية » تأليف ف . أ . ليپر . اكسفورد ١٩٤٨ ص ٩٥ وما بعدها .

(٤) ١٠٧ — ٣ .

في سنة ١٢٧ . ذلك أن الشاعر يواسي فيها بعض أصدقائه وقد وقع فريسة للاحتيال فيخاطبه بقوله :

« وهل تعجب أنت مما حدث وقد جاوزت الستين إذ ولدت في عهد قنصلية فونتيوس؟ »^(١) وقد كان فونتيوس قنصلاً سنة ٦٧ . ثم إن الشاعر يصف في قصيدته ١٥ حادثة وقعت في مصر فيقول « وقعت حديثاً في عهد قنصلية يونكوس »^(٢) وقد كان يونكوس قنصلاً سنة ١٢٧ . ثم أن الشاعر في قصيدته ١٤ ينعي على الرومان تهودهم وتختهم^(٣) . وقد قام اليهود سنة ١٣١ بثورة عارمة من أسبابها أن الإمبراطور أدرينانوس قد أصدر أمره بمنع الختان . فلا بد أن تكون القصيدة قد كتبت قبل صدور هذا الأمر الإمبراطوري الذي جعل التخت عملاً غير مشروع . وإذن فقد صدرت المجموعة الخامسة فيما بين ١٢٧ ، ١٣١ .

وإذن فقد كان نشاطه الأدبي واقعاً في عهده الإمبراطورين تريانوس (٩٨ - ١١٧) وهادريانوس (١١٧ - ١٣٨) ولغله لم يمتد إلى آخر حكم هادريانوس :

وفي شعره إشارات طفيفة أخرى إلى حياته . فهو يتحدث في قصيدته ١١ عن نفسه باعتباره رجلاً مسناً^(٤) ، وقد صدرت هذه القصيدة ضمن المجموعة التي نشرت فيما بين ١١٨ ، ١٣٠ فأحرى بنا أن نضع ميلاده بين سنة ٦٠ ، ٧٠ ميلادية

وهو يتحدث عن مصر في قصيدته ١٥ ويقول « كما لاحظت بنفسى^(٥) وهي إشارة إلى زيارته لمصر وإقامته بين أهلها^(٦) .

(١) ١٣ ، ١٦ ، ١٧ - (٢) ١٥ ، ٢٧

(٣) ١٤ ، ٩٦ - ١٠٦ . (٤) ١١ ، ٢٠٣

(٥) ١٥ ، ٤٥

(٦) راجع J. Wright Duff في A Literary History of Rome in the Silver Age

الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٥ ص ٦٠٢ هامش ٢١١ حيث يقرر أن قوله « كما لاحظت بنفسى » ليس دليلاً ملزماً على زيارته لمصر .

ولنا لنعلم أن يونانليس كان مقيماً في روما حوالى سنة ٩١ ، ٩٢ لأن صديقه الشاعر مارشاليس قد كتب إليه في ذلك الحين رسالتين^(١) .
وهناك سيرة قديمة تعزى أحياناً إلى المؤرخ سيوتونيوس ولكنها على التحقيق متأخرة عنه^(٢) ، وهى تقول^(٣) «يونيوس يونانليس : ليس من المحقق إن كان ابن أو ربيب عتيق ثرى . مارس الخطابة إلى منتصف عمره تقريباً لإرضاء لنزعه لا استعداداً لتعاطى الفلسفة أو المحاماة . وبعد أن كتب قصيدة هجائية من أبيات قليلة وإن كانت مرضية ضد الممثل باريس وضد شاعر آخر ازدهاه أنه حظى بوظيفة حربية لمدة ستة أشهر فحسب ، توفر في إمعان على كتابة هذا الضرب من الشعر . ومع أنه ظل مدة طويلة لا يجرؤ على إلقاء شعره حتى في المحافل الصغيرة ، فإنه سرعان ما سُمع في المحافل الغاصة بنجاح عظيم مثني وثلاث . حتى أنه كان يضيف أبيات جديدة إلى القصائد التى كان قد صاغها من قبل .

« إن ما لا يمنحه العظماء سوف يمنحه ممثل . فلماذا تزور دور النبلاء العظيمة من الكاميرين والباريين ؟ إن بيلوپيا هى التى تعين القادة وفيلوميلأ هى التى تعين الطرابنة » .

وكان المثل محل رضا في هذا الحين في البلاط وكان يرقى يومياً الكثيرين ممن يتملقونه ، ومن ثم فقد اتهم يونانليس بأنه كان يشير تلميحاً إلى هذا الذى يجرى في البلاط . وبالرغم من أنه كان في الثمانين من عمره يومئذ فقد نفى عن المدينة في وظيفة حربية وأرسل قائداً لكتيبة في طريقها إلى أقصى حدود مصر . ولقد اختير له هذا الضرب من العقوبة لأنه يناسب ما اقترف من جرم هين عابث . والحق أنه مات بعد وقت قصير جداً من الحزن والمضض .

(١) مارشاليس ، ٧ ، ٢٤ ، ٧ و ٩١ .

(٢) كتب سيوتونيوس كتابه سنة ١١٤ وقد عاش يونانليس إلى ما بعد ١٢٧ فلا بد أن تكون سيرته هذه بقلم متأخر عن سيوتونيوس .

(٣) راجع نص هذه السيرة في J. E. B. Mayer "Thirteen Satires of Juvenal"

سنة ١٨٧٨ الجزء الثانى المقدمة صفحة ١١ وفى كتاب G.G. Ramsay "Juvenal and Persius"

سنة ١٩٤٠ . المقدمة صفحة ١٧ .

وهناك ثمان سير وشروح أخرى كلها أحدثت من هذه السيرة عهداً ،
وهي تتضارب تضارباً يحتملنا على الأخذ بها بخذر شديد . فيها ما يذهب إلى
أن نفيه كان إلى بريطانيا *contra Scotos* وهي متأثرة ولا شك بدقة وصفه
لبعض أرجاء الجزائر البريطانية^(١) . ومنها ما تذهب إلى أن نفيه كان في
عهد الإمبراطور نيرون^(٢) (٥٤ - ٦٨) وهو خطأ ظاهر لأن يونايليس
كان لا يزال في قيد الحياة سنة ١٢٧ . ومصدر هذا الخطأ أنه كان هناك
مثلاثان يسميان باريس ، وقد خلط الشراح بينهما أما أحدهما فقد قتل في عهد
نيرون وأما الآخر فقد لاقى المصير نفسه في عهد الإمبراطور دوميتيانوس
(٨١ - ٩٦) ، فكان الأولى بالشرح أن يصرفوا الكلام الوارد في القصيدة
السابعة إلى ثانيهما دون الأول . ومع ذلك فالظاهر أن دوميتيانوس - على
شدة مقت الشاعر له^(٣) - لم يكن مسئولاً عن نفيه ، لأن مارشاليس كان
يراسل يونايليس في روما سنة ٩١ وأخوها ، ولم يكن مارشاليس من استقلال
الرأى وقوة الشخصية بحيث يراسل صديقاً وقع تحت طائلة سخط الإمبراطور
هذا ولم تقل « السيرة » إن الممثل المهجو كان محل رضا البلاط ، بل قالت
إن ممثلاً كان في ذلك الحين أثيراً لدى البلاط . وكان الممثل باريش قد اتهم
في علاقته بزوجة الإمبراطور دوميتيانوس فاغتاله سنة ٨٣ . وليس من
الخاص أن الشاعر نفي في ذلك العهد البعيد . ومن هنا ذهب رامساي Ramsay
إلى أن كل المحاولات التي تهدف إلى وضع نفي الشاعر في عهد الإمبراطور
دوميتيانوس قد باءت بالفشل^(٤) وأن الأرجح أنه حدث في عهد الإمبراطور

(١) راجع Duff « المصدر نفسه » صفحة ٦٠٠

(٢) راجع الشرح على البيت ٩٢ من القصيدة السابعة . Propfer hunc versum

missus est in exilio a Claudio Nerone.

(٣) إن كره يونايليس للإمبراطور دوميتيانوس مستفيض . انظر ٢ ، ٢٩ - ٣٣ ،

و ٤ ، ٣٧ - ٣٨ ؛ ٦٩ - ٧١ ؛ ٧٢ - ١٠٣ ؛ ١٠٤ - ١٥٤ .

(٤) المصدر نفسه . المقدمة صفحة ١٩ .

اهدريانوس لأنه كان من رعاة الممثلين والفنانين من جميع الأنواع وأنه كان قميناً أن يثور لإهانة يتوهمها موجهة ضد أحد أخصائيه (١)

ويرى هايت (٢) أنه بالرغم من أن الممثل باريس قد اغتيل سنة ٨٣ فمن الممكن أن يكون يوناليس قد كتب سنة ٩٢ هجاء لأحد أحلاس البلاط ممن يتمتعون بنفوذ فيه أقوى من نفوذ النبلاء وخصوصاً فيما يتعلق بالترقيات العسكرية ، فرأى فيه الإمبراطور عيباً في ذاته الإمبراطورية وتعريضاً بنزاهة الحكم فنفاه .. والحق أن هذا التفسير لا يعدل أن يكون فرضاً لايعززه إلا أن الشاعر كان شديد المقت لدوميتيانوس وإلى أنه جاء مصر ..

فلو صح أن الشاعر قد نفي لسبب أو لآخر حول هذا التاريخ فأين كان منفاه ؟ إن كتاب السير (والشرح يختلفون في هذا كل الاختلاف ففهم من يزعم أنه نفي في ليبيا (٣) ومنهم من يزعم أنه نفي في «واحة» وهم يعنون الواحة الخارجة (٤) .. ولكن منشأ القول بنفي الشاعر هو السيرة التي نقلناها . فأولى بنا أن نتبعها وهي تقول إنه نفي إلى «أقصى حدود مصر» وهي تعني على الأغلب أسوان وقد كانت مركز ثلاث كتائب رومانية في ذلك العهد (٥)

(١) المصدر نفسه المقدمة صفحة ٢١

(٢) Juvenal The Satirist: G. Highet اكسفورد سنة ١٩٥٤ صفحة ٢٥

(٣) راجع chronographia. Joannes Malalas ١٠ ، ٣٤١ ، وقد ورد النص في Mayor . المصدر نفسه صفحة ١٢ ، وفي Highet المصدر نفسه صفحة ٢٣٩ . ويلاحظ . أن هذه المنطقة كانت إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس تابعة لولاية كويت وقورية . فلم تكن إذن في مصر .

(٤) راجع الشارح على البيت الأول من القصيدة الأولى حيث يقول :

hos autem libros in exilium missus ad civitatem ultimam Aegypti
Hossim ab ipso Domitiano scripsit

وراجع الشارح أيضاً على البيت ٣٨ من القصيدة الرابعة حيث يقول :

propterea quod Juvenalis sub specie bonoris relegtus est ad cohortis
curam in Aegypto Hoesa, ubi mortuus est.

(٥) راجع L'Année romain d'Égypte J. Lesquier سنة ١٩١٨ صفحات

ويعزز هذا الرأى ما يبديه يونانيس من معرفة بأسوان باعتبارها سوق للعاج فهو يقول « أما اليوم فلا يجد الأغنياء لذة في مأكلهم ، ولا نكهة لسمك موسى Rhombus ولا لدما damma وتبدو العطور والرياحين كأنها عطنة إن لم تكن ألواح المائدة عريضة قائمة على فهد ضخمة فاغرفاه من العاج الصب المتخذ من السن الذى ترسله إلينا أسوان » (١).

ولعله رأى وهو فى أسوان بعض أهل مروى فهو يصف نساءهم وصفاً كأنه صادر عن شاهد عيان : « من يعجب لخلق وادم فى جبال الألب أولئدى امرأة من أهل مروى أضخم من طفلها السمين ؟ » (٢).

والحق أن يونانيس كان مشغول الخاطر بمصر وأهلها وآثارها وديانها منذ بدأ ينشر شعره ، وهو دائم الإشارة إليها من قريب أو بعيد لا تغيب عن ذهنه قط . فهو إن نعى قلة الأتقياء قال « إن الأتقياء قليل ، لا يكاد عددهم يبلغ عدد أبواب طيبة أو مصبات النيل الثرى » (٣) وإن عاب على الإمبراطور أوتو ولعه بمظهره قال « إن الإمبراطور أوتو يظل فى مرآته قبيل المواقع وهو شىء لم تأت سميراميس وهى تحمل جعبتها فى مملكتها الأشورية ولا كليوباترة التحسة على ظهر سفينتها فى أكتيوم » (٤) وإن أراد أن يقول إن الرجل بأعماله لا يحبه قال « أسلم ياجايتوليكيوس أو أنت ياسيلانوس مهما يكن متبتك فإن أنت أثبت لوطنك أنك مواطن نادر ممتاز فسيفخر بك وسيردد الجميع ما يردده الشعب كله عندما يجلبون أوزيريس » (٥).

(١) راجع القصيدة ١١ ، ١٢٠ ، ١٢٤

(٢) » » ١٣ ، ١٦٢ ، ١٦٣

(٣) » » ١٣ ، ٢٦ ، ٢٧

(٤) » » ٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩

(٥) » » ٨ ، ٢٦ ، ٣٠ . لقد تواترت الأقوال عند المؤرخين القدماء بتهيل

المصريين عند ما يجلدون عجل أبيس إذ كانوا يعتقدون إنه تجسد لأوزيريس .

راجع مينوكيوفيلكس ٢٢ Isis, sacerdotes. exultant mox inuents parvulo gaudet

وانظر تروتوليانوس « ضد ماركيو » ١ ، ١٣ Osiris . . . quaesitur et cam

gaudio invenitur

هذه إشارات بريئة . ولكن شعر يونانيس يقصر بأبيات تم عن كرمه لمصر وأهلها وذيانها وتغلغل هذه الديانة في روما بل إن حقة على أخذ المصريين كان من الأسباب التي دفعتهم إلى كتابة الهجاء . فهو يقول في مستهل هجائياته :

« إذا ما بنى الخصى الرقيق بزوجته ، وإذا ما كشفت ميوباً عن ثديها وامتشقت حزبة وتصدت لصيد الدب الاترسكي ، وإذا ما انبرى أحدهم وقد كانت ذقت الخسنة تزعند ما كان يحلقها لي في شباني فتعدي بزوجته الخاصة النبلاء قاطبة ، وإذا ما كان فرد من حثالة النيل هو كريسيبتوس وقد كان عبداً في كانوبوس^(١) يطوح بعباءته الضووية على كتفه ويهوى خاتماً صديقاً على أصابعه الندية لأنه لا يستطيع أن يحتمل ثقل حجر كريم أكبر من هذا حجماً ، فمن العسير أن لا يكتب المرء الهجاء^(٢) . لقد بلغ كريسيبتوس هذا مرتبة قائد الحرس الإمبراطوري في روما . ولكن خقد يونانيس المتأجج عليه

= وانظر أيضاً بلوتارخوس إيزيس وأوزيريس ٣٩ .

وحدث في سنة ٧٠ أن عثر على أبيق وقد حضر تيتوس Titus حفل تنصيبه (راجع سيوتونيوس «حياة تيتوس») وقد كانت حفل تنصيب أبيس سنة ١٢٢ مناسبة لقيام اضطرابات في مصر . وأنا لنعلم أن العجل أبيس كان له أجل معلوم لا يحل له أن يتجاوزوه وهو خمسة وعشرون عاماً . فأغلب الظن إذن أن المناسبة التي علفت بدهن الشاعر والتي أشار إليها في هذه الأبيات كانت مناسبة تنصيب العجل أبيس التالي للعجل الذي حضر تيتوس حفل تنصيبه سنة ٧٠ وهي تقع بين ٩٥ ، ٩٧ .

وقد ظل الاحتفال بتنصيب العجل أبيس يحيا في مصر إلى أواخر القرن الرابع الميلادي فقد رأى المؤرخ أميانوس ماركيلنيوس في حوادث عام ٣٦٣ «أنه قد رفع إلى الإمبراطور يوليانيوس كتاب من والي مصر يقول فيه إنه بعد مجهود شاق قد أمكن أن يجدوا أخيراً بعد ربح من الزمن عجل أبيس وهو أمر فيما يعتقد سكان مصر يبشر بالرخاء ووفرة المحاصيل ومختلف الخيرات» . (الكتاب ٢٢ ، ١٤ ، ٦) .

(١) موقعها الآن كوم سمعلى بالقرب من أبي قير . وكانت تشتهر بالعبث والمجون (راجع استرابون ١٧٠ ، ١ ، ١٧) وقد عرف عنها يونانيس هذا الفجور وكان يضرب بها الأمثال فقال : «عند ما هربت إيبيا زوجة عضو مجلس الشيوخ مع مصارع إلى فاروس والنيل أي إلى مدينة لاجوس الشهيرة فإن كانوبوس نفسها قد استنكرت مخازي روما وأحوالها» . القصيدة (٨٤ ، ٨٢ ، ٦)

(٢) القصيدة ١ ، ٢٢ ، ٣٠ -

وكرهه الدفين له قد حملاه على مهاجمته أشد الهجوم وأعنفه غير عابئ بما قد تجره عليه هذه الجرأة من عواقب وخيمة حتى لقد ذهب البعض إلى أن كريستينوس هذا كان مسئولاً عن نفى الشاعر إلى مصر (١) .

وقد قال يهجووه وهو لا ينوى أن يكف عنه :

« هاكم كريستينوس مرة أخرى ، فلا بد لي من حق ذكره في المحافل كثيراً . فهو وحش ليس به من فضيلة واحدة تنقذه من رذائله . وهو داعر قليل ليس فيه من قوى الإلهوائه ، وزان لا يتعفف إلا عن الآنسات فحسب فإذا يجديه إذن أن تتسع ساحاته فتضني خيله ، وأن تنفسح أرجاء أحراره التي يترىض في ظلها ، وأن تكثر الأفدنة والقصور التي اشتراها بالقرب من قلب المدينة ؛ ليس من شريد سعيد ، وخصوصاً اللعاعر المتفحش الذي ضاجعته منذ عهد حديث كاهنة معصوبة اشعر (٢) قضى عليها أن ترقد تحت الثرى ولا يزال دمها يجري في عروقها » .

« سأحدث الآن عن أشياء أقل خطراً . ومع ذلك فلو أن شخصاً غيره قد أتى نفس العمل لوقع تحت طائلة اللوم . ذلك أن ما يشين الرجال الفضلاء من أمثال تيتيوس وسيپوس يزين كريستينوس وماذا عساک أن تصنع إن كان الشخص نفسه أبشع وأشنع من كل ما يقوم به ؛ لقد اشترى بوريه بستة آلاف سيسترتيوس (٣) أى ألف سيسترتيوس لكل رطل فيها كما يقول الذين يتحدثون عن الأمور الضخمة بتعابير ضخمة . ولو أنه حصل بهذه الهدية

(١) انظر O. Highet المصدر نفسه صفحة ٢٩ . وكان أول من نادى بهذا القول هو

B. Borghesi في كتابه *Annotazione alle satire di Giovenale* باريس ، ١٨٦٩ صفحات ٥١٣ - ٥١٦ .

(٢) كانت كاهنات فستا Vesta العذارى يلبسن عصابة Vitta حول شعورهن .

وكن ينذرن للإلهة بكورتهن - وقد حكم على هذه الكاهنة بالدفن حية لقاء إهدارها هذا النذر .

(٣) أى حوالى ٦٠ جنيهاً .

الكبيرة على المكانة الأولى في وصية عجوز لاولد له ، أو لو أنه أرسلها - وهذا أفضل - إلى صديقة رائعة الجمال تتركب محفلة مغلقة ذات نوافذ عريضة ، ملدحت خطته الماكرة . ولكن لا تنتظر شيئاً من هذا القبيل . فقد اشتراها لنفسه ، إنا لنشهد اليوم أشياء كثيرة لم يأتها أبداً أبيكيوس^(١) الفقير الشحيح . وهل انفتحت أنت يا كريسينوس - وقد كنت فيما مضى تأتزر بردى^(٢) ووطنك - هذا المبلغ لقاء سمكة ؟ لعل السمك كان يمكن أن يشتري بأقل من ثمن السمكة . إن ضياعاً تشتري في ولاية من الولايات بهذا المبلغ ، وتشتري أكبر منها في أبوليا بهذا الثمن . وكيف نتصور أصناف الولاثم التي كان يلتمها الإمبراطور نفسه إذا كان كل هذا القدر من المال لا يمثل إلا جانباً ضئيلاً وصنفاً واحداً على هامش مائدة متواضعة وقد يتجسأه جلس مطيلس من أحلاس القصر العظيم هو الآن رئيس الفرسان وكان همه فيما مضى أن ينادى بأعلى صوته على قراميط بلده الفاسدة^(٣) .

وهو يصفه في حضرة الإمبراطور فيقول : « وكان حاضراً أيضاً كريسينوس ، وبالرغم من أن الوقت كان الصباح المبكر فقد كان يفوح برائحة لا تكاد تفوح بمثلها جنازتان »^(٤) .

ولو أن الأمر اقتصر على هجاء كريسينوس هذا لسهل تعليله بأن العداوة استعرت بينه وبين الشاعر لخصومة كانت بينهما ، أو ليأس الشاعر من خير رجاء على يديه . ولكن يونانيس لا يكاد يسمع بمصرى أو بمن له صلة بمصر حتى يشحذ للهجو لسانه في مرارة وحقارة . كان يسير في السوق forum يوماً فرأى تمثال طير يوس يوليوس الكسندر وقد كان والياً على مصر من سنة ٦٧

(١) عاش أبيكيوس في عهد الإمبراطورين أغسطس وطير يوس وكان يشتهر بالفهم والولع بأطباق الموائد (راجع سنيكا الرسالة ٩٥) .

(٢) قال بلينيوس في حديثه عن البردى (١٣ ، ٢٢) كان المصريون يصنعون من لبابه الشراع والحصير كما كانوا يصنعون منه الملابس .

(٣) القصيدة ٤ ، ١ - ٣٣ .

(٤) سنة ١٠٨ ، ١٠٩ - ١٠٩ .

إلى سنة ٧٠ (١). وكان الرجل يهودياً لا يمت لمصر إلا بأوهى الصلوات ومع ذلك فقد تعرض لهجو الشاعر إذ يقول : « ثم بلغنا تماثيل النصر التي تجرأ أحد المصريين من حكام الصحراء الشرقية (٢) لأدري له اسماً فوضع بينها ألقابه . وحلال بالقرب من تماثله ألا يقتصر الناس على التبول » (٣) .

هذا مبلغ كرهه لرجلين يمتان لمصر ببعض الصلة . أما كرهه للشعب المصري فقد تجلى في أوضح صورة في قصيدته الهجائية الخامسة عشر وقد جاء فيها ١ - ١٣ « من يجهل ياولوسيوس البيثيني ضروب المسوخ التي تقدها مصر المفتونة (٤) ؛ فهذه المنطقة تعبد التمساح (٥) وتلك تقديس الأيبس المتخوم بالثعابين (٦) وفي المنطقة التي تدوى فيها الأوتار السحرية من ممنون

(١) انظر كتاب "A History of Egypt under Roman Rule" J. G. Milne

الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٤ صفحات ٢٢ - ٢٩

(٢) لقد أثبت M. Rostowzew في "Römische Mitteilungen" أن لقب « حاكم

العرب » Arabarches حاكم المنطقة التي تسمى في مصر ببلاد العرب .

(٣) القصيدة ١ ، ٣٠ - ٣١ .

(٤) لقد كان تقديس المصريين لبعض الحيوانات موضوعاً أثيراً لدى الكثيرين من الكتاب

القدماء . انظر هيرودوت ٢ ، ٦٥ - ٧٦ . ويودور الصقلي ١ ، ١١ - ٢٦ ، ٨٣ - ٩٠ ، استرابون ١٧ ، ١ ، ٣٨ ، ٤١٠ وبلاوتارخوس « إيزيس وأوزيريس » ٧١ - ٧٥ ، وماكسيموس الصوري ٨ ، ٥ .

(٥) يعنى الإله « سبك » وكان يعبد في كروكوديلوبوليس أى مدينة الفيوم الآن

(٦) الأيبس يمثل الإله تحوت وقد كان مقدساً في هرموبوليس الكبرى أى الأشمونين وهرموبوليس الصغرى أى دمنهور . وقال هيرودوت ٢ ، ٧٥ « وتذهب الرواية إلى أن الحيات المحنطة تطير في الربيع من بلاد العرب صوب مصر ولكن الطائر أبا منجل (الأيبس) لا يدعها في طريقها بل يبيدها . ويقول الأعراب إنه من أجل هذه الخدمة يقديس أبو منجل عند المصريين تقديساً عظيماً . ويوافق المصريون على أنهم يقديسون هذه الطيور من أجل هذه الخدمات » . ويقول بلينيوس ١٠ ، ٧٥ « ويستعبد المصريون بالأيبس ضد هجمات الثعابين » . وقال كيكرو في كتابه « في طبيعة الآلهة » ١ ، ٣٦ « فالمصريون وهم مثار السخرية لا يقديسون الحيوان إلا لفائدة يحنونها منه . فالأيبس (أبو منجل) وهو طائر كبير ذو سيقان قوية ومثقال طويل صلب يهلك عدداً كبيراً من الحيات . فهذه الطيور إذن تحمي مصر من الأمراض الوبائية بقتلها والتهاها للحيات الطائرة التي تجلبها الرياح الجنوبية الغربية من صحراء ليبيا . وهكذا تجنب مصر ويلات لدغاتها وهي حية وشر العدوى عند ماتها » . وقال أميانوس ماركيلينوس ٢٢ ، ١٥ ، ٢٥ : «

المصدوع^(١) وحيث تقع طيبة القديمة المتداعية بأبوابها المائة^(٢) يتلألاً التمثال الذهبي للنسنانس^(٣) . هنا يعبدون القمطط^(٤) وهنا سملك النيل^(٥) . وهناك

« ومن الطيور المصرية الأبيس وهو مقدس وأليف ومحبوب لأنه ينقل بعض الحيات إلى أعشاشه ليتخذها طعاماً له ، فيكون بذلك سبباً في هلاك هذه اللعنات المميته وندرتها . وهذه الطيور أيضاً تصطرع مع جحافل الحيات المنححة ، التي تأتي من مستنقعات بلاد العرب وتنتج سموماً خبيثة . وتهزمها في معارك جوية وتلتهمها قبل أن تغادر حدود بلادها » .

(١) في الأساطير اليونانية أن أن منون ابن تيثونوس وإلهة الفجر . وقد أطلق الإغريق اسمه على تمثال أمنتحتب الثالث وزوجه الليبية قى . وأول من وصف ظاهرة صدور الأنعام عن التمثال هو : استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٦ حيث قال « ويوجد هنا تمثالان ضخمان متجاوران كل منهما من حجر واحد . أحدهما سالم أما الآخر فقد تهدم من القاعدة إلى الأجزاء العليا على إثر حدوث زلزال فيها يقولون . والمعتقد أنه يصدر مرة كل يوم صوتاً كأنه صغير خافت من ذلك الجزء من التمثال الذي بقى على العرش ومن القاعدة . وعند ما كنت حاضراً في هذه البقاع مع ايليوس جالوس وجهور حاشيته من الأصدقاء وإلخند ، (سنة ٢٥ ق) سمعت أنا نفس الصوت حوالى الساعة الأولى (الأولى من شروق الشمس أى السادسة صباحاً) ولكنى لست بقادر أن أجزم فيما إذا كان الصوت قد صدر من القاعدة أم من التمثال أم قد أطلقه أحد الذين كانوا واقفين في دائرة بالقرب من القاعدة . ذلك أنى أميل - لخفاء العلة - إلى تصديق أى شيء إلا أن يكون الصوت صادراً من الحجارة المصقوفة على هذا النحو » . ولما زار الإمبراطور سيفيروس مصر سنة ١٩٦ م . أمر بترميم التمثال فلم يصدر عنه صوت منذ ذلك التاريخ .

(٢) كانت طيبة وموقعها الآن الأقصر تعرف بذات المائة باب فقد قال هوميروس « الالباذة » (٩ ، ٣٨٣) طيبة ذات المائة باب ، التي ينطلق من كل باب منها مائتا محارب يجهلهم ومركباتهم » .

وقد زارها استرابون سنة ٢٥ ق . م فقال (١٧ . ١ . ٤٢) وترى إلى الآن آثار عظمتها ممتدة مسافة ثمانين أ斯塔د طولاً وتوجد بها معابد عديدة وقد خرب قمييز أكثرها . والمدينة الآن مجموعة من القرى » .

(٣) Cercopithecus ؛ جاء في معجم الحيوان للفريق أمين المملوف أنه الحجرس وهو قرود صغير طويل الذنب يعرف عند عامة المصريين بالنسنانس . وكان يرمز للإله تحوت ويقدس من الأشمونيين .

(٤) القطط يرمز للإلهة باست وكانت تعبد في يوباسطين وموقعها الآن الزقازيق . قال هيرودوت (٢ ، ٦٧) « وتنقل القطط بعد موتها إلى مقاصير مقدسة في مدينة يوباسطيس حيث تحفظ وتدفن » . وقال ديودور الصقلي (١ ، ٨٣) ومن يقتل عامداً أحد الحيوانات المقدسة يلاق الموت ، أما من يقتل قطعاً أو أبا منجل (أبيس) فسواء قتلها عامداً أو غير عامد فالموت نصيبه على كل حال .

(٥) قال هيرودوت (٢ ، ٧٢) « ويعتبر مقدساً من الأسماك ، النوع الذي يسمى بالشبوط وثمان الماء وهذا النوعان من الأسماك مقدسان فيما يقولون لليل » . وقال استرابون (١٧ ، =

القرى كلها تعبد الكلب^(١) . ما من أحد يعبد ديانا^(٢) . وحرام أن يدنس الكرات والبصل^(٣) وأن يقضم بالأسنان . يا له من شعب قدسى تنمو عنده هذه الآلهة في حدائقه ؟ إن الموائد كلها تعزف عن ذى الوبر^(٤) من الحيوان ، ومن الحرام هناك ذبح صغار الجداء^(٥) . ومع ذلك فمن الحلال أكل اللحم البشرى^(٦) .

(١ = ٤٠ ، ١) ويوجد على الضفة المقابلة من النهر مدينة أوكسيرنخوس = أى مدينة القنومة (هى البهنة الآن) وإقليم بهذا الاسم . وهناك يعظمون القنومة ويوجد عندهم معبد للقنومة مع أن سائر المصريين يشتركون في تعظيمها وأهل إقليم لاطوپوليس (هى إسنا الآن) يعظمون اللوطوس وهو نوع من السملك فى النيل .

(١) كان الكلب مقدساً للإله ست . قال استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٠ « مدينة لينوپوليس أى مدينة الكلب (وموقعها الآن الشيخ فضل فى مواجهة بنى مزار حيث يعظم أنوبيس وحيث تقام مأدبة مقدسة للكلاب » . ويقول ديودور الصقل ١ ، ٨٧ « يصور المصريون الإله الذى يسمونه أنوبيس على هيئة إنسان له رأس كلب إشارة إلى أنه حارس أتباع أوزيريس وإيزيس ... » إن كافة المصريين يشتركون فى تعظيم بعض الحيوانات كالثور والكلب والقط .

(٢) الإلهة Diana تقابل عند اليونان أرتيمس وقال هيرودوت ٢ ، ١٣٧ « والإلهة بوباسطيس هى فى اللغة اليونانية أرتيمس »

(٣) قال بلوتارخوس « إيزيس وأوزيريس » (٨) « ولكن الكهنة يعزفون عن البصل ويكرهونه ويتعمدون أن يتجنبوه » . وقال بلينيوس (١٩ ، ٣٣) « والمصريون يعدون الثوم والبصل بين الآلهة عند الحلف » . هذا عن البصل أما الكراث فلم يرد ما يشير إلى تقديسه فى غير هذا الموضع .

(٤) يعنى الكبش وهو مقدس لنخوم . قال استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٠ « أهل سايس (صا الحجر) يعظمون الكبش وكذلك أهل طيبة « الأقصر » وقال هيرودوت (٢ ، ٤٢) « ولا يضحي أهل طيبة بالكباش فهى عندهم مقدسة » .

(٥) يقول استرابون (١٧ ، ١ ، ١٩) منديس (تل الربع فى الجنوب الشرقى من المنصورة) حيث يعبدون بان « ويقول هيرودوت (٢ ، ٤٦) « يقدس أهل منديس الماعز ولكن الذكور منها أكثر من الإناث ورعاة الذكور يحظون بتعظيم أكثر من رعاة الإناث ، ويقدم واحد من الذكور بوجه خاص ، فإذا مات يعم الخدائد العظيم كل إقليم منديس وفى مصر يسمى الماعز وبان كلاهما بمنديس » .

(٦) لقد أنكر هيرودوت مجرد التضحية بالإنسان فنتساءل (٢ ، ٤٥) « كيف يجوز لقوم لا تحل لهم التضحية بالحيوان إلا الخنازير والثيران والعجول ما كان منها طاهراً والأوز ، أن يضحوا بآدميين ؟ » ومع ذلك فقد قال ديودور الصقل (١ ، ٨٤) « يحكى أن القبط هصر المصريين مرة فصاروا فى عوزهم يأكلون بعضهم بعضاً ولكن أحداً منهم لم يهتم - مجرد تهمة - بتناول أى الحيوانات المقدسة » .

ثم يقول (٢٦ - ٨٣) بعد استطراد قصير « سأروى الآن قصة عجيبة وقعت حديثاً في عهد قنصلية يونكوس (١) خارج أسوار فقط المحرقة . سأروى خبر جريمة ارتكبتها الشعب كله هي أبشع من كل ما في المأسى المسرحية من جرائم . فإن أنت استعرضت كل الجرائم في المأسى المسرحية فلن تجد بين كتاب المأسى من جعل الشعب هو المجرم . واسمع أى جريمة أتت بها الهمجية العارمة في عصرنا هذا .

إن العداء القديم المتأصل والكره الأبدي الذى لا تندمل جراحه أبداً لا يزال إلى الآن متأججاً بين المدينتين المتجاورتين أمبي (٢) وتنتيرا (٣) . فالحق في كليهما عظيم شامل لأن كل منطقة منهما تمتعت آلهة جيرانها (٤) . لأنها تؤمن أن الآلهة الوحيدة التى يجوز أن تعد آلهة هي الآلهة التى تعبدوها هي

(١) كان يونكوس قنصلاً سنة ١٢٧ ب . م .

(٢) كان المعتقد قديماً أن أمبى هي كوم أمبو ولعل ما حدا بالعلماء إلى هذا الرأى ما اكتشف في كوم أمبو من جبانات شاسعة للتأسيح المحنطة . راجع Moset (المصدر نفسه) صفحة ٣٦٥ . وحيث أن كوم أمبو « تبعد عن مدينة تنتيرا وهي دندرة الحالية بمسافة تزيد عن ١٢٠ ميلاً فقد شك في صحة وصف المعركة لأن كوم أمبو على الجانب الأيمن من النيل في حين أن دندرة على الجانب الأيسر منه ، ثم إن واحدة منهما فقط إلى الشمال من فقط . وإذن فلا يمكن أن تقوم بينهما معركة على الإطلاق .

وقد ذهب العلماء بصدد هذا الشك مذهبين فأما الأول فقد أنكر صحة نسبة القصيدة الخامسة عشرة برمتها إلى يوناليس (راجع C. Kempf في كتابه De Satira quinta decima quae sub Juvenalis nomine circumfertur ، برلين سنة ١٨٤٣) وأما الثانى فقد أنكر أن يوناليس زار مصر (راجع Duff. المصدر نفسه ص ٦٠٢ هامش (١) .

ولكن J. Dümichen أخرج سنة ١٨٧٩ في برلين كتابه في تاريخ مصر القديمة Geschichte des Alten Agyptens وبرهن فيه (صفحة ١٢٥ - ١٢٦) على أن أمبوى مدينة نبط المناخة لدندرة . وفي سنة ١٨٩٥ قام W. M. F. Petrie J.E. Quibell بالخفاثر في هذه المنطقة وأخرجها سنة ١٨٩٦ كتابها Naqada and Ballas وأثبتا فيه أن أمبى هي نبط بما لا يدع مجالاً للشك (انظر صفحات ٦٥ - ٧٠) .

(٣) موقعها الآن دندرة وكان اسمها في العصر اليوناني الروماني أفروديتيوبوليس أى مدينة هاتور .

(٤) كان الإله ست يعبد في أمبى ويقول Moret (المصدر نفسه ص ٦٨) إن نبط كانت أقدم مراكز عبادة الإله ست ومقل أتباعه السياسى . وهي بالقرب من نقادة وبلاص على الضفة الغربية من النهر في مواجهة فقط . وكان ست يصدر على شكل تمساح . أما دندرة =

نفسها وقد حدث في فترة العيد عند أحد هذين الفريقين أن بدا لأعيان خصوصهم وقادتهم كلهم أنه لابد من انتهاز هذه الفرصة حتى لا يتمتع أعداؤهم بيوم فرح وحبور ، ولا بلدة العشاء الفاخر إذ تعد الموائد أمام المعابد وفي مفترق الطرق ويسهرون على الأرائك تمتد بالليل والنهار إلى أن تطلع عليها شمس اليوم السابع^(١) . إن مصر ولاشك عاتية ولكن شعبها الهمجي لا يختلف في الترف كما لاحظت بنفسى حتى عن كانوبوس الشهيرة^(٢) . أضف إلى هذا

== فقد كانت مركزاً من مراكز عبادة الإلهة هاتور . وقد قام الإمبراطور دوميتيانوس ببناء بوابتين لمعبدها في دندرة سنة ٨٨ . وكان أهل دندرة يشتهرون بكراسيتهم للتماسيح قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٤٤) « وفي مدينة تنثيرا على عكس الأمر عند سائر المصريين لا يعظم التماسيح بل يعد أبغض الحيوانات كلها . ذلك أنه بالرغم من أن سائر المصريين يعرفون ضراوة الحيوان ومبلغ فتكه بالجنس الإنساني فإنهم مع ذلك يقدسونه ولا يؤذونه ، في حين أن أهل تنثيرا يتعقبونها ويقتلونهم بكافة الطرق . ويقول البعض إنه كما يوجد نوع من الثفور الطبيعي بين البلسيين بالقرب من فوريئة وبين الزواحف ، فكذلك الحال بين أهل تنثيرا والتماسيح حتى إنهم لا يصيهم منها ضرر . بل إنهم يغطسون في نهر بلا خوف ويعبرونه في حين لا يجروا أحد غيرهم على ذلك ... وهم يعبدون أفروديتي^٣ » . وقال بلينيوس (٨ ، ٣٦) « إن فئة من الناس تدعى أهل دندرة من اسم الجزيرة التي يسكنونها في النيل ذاته تعادى التماسيح ... وهؤلاء وحدهم هم الذين يجروون على مهاجته فهم يسبحون في النهر ويعتلون ظهره كما لو كانوا يمشون صهوة جواد ، وعند ما يقفرواه ويميل برأسه للوراء للعض يدخلون في فيه عصا ويمسكون بطرفها يائنين والشمال ويسوقون أسيرهم إلى الشط كما لو كانوا مسكينين بأعنة . وهم يخيفون التماسيح بمجرد الصراخ حتى يضطرونها لقيء ما التهمت من جثث حديثة لدفنها . ولذلك فإن التماسيح لا تقرب هذه الجزيرة وحدها كما أن رائحة هذا القبيل من الناس تذودها كما تذود رائحة البلسيين الحيات » .

(١) لقد أورد F. Petrie في كتابه Denderah ، لندن ١٩٠٠ ص ٥٧٠ - ٥٩٠ . وصفاً دقيقاً لولائم كبرى كانت تقام في دندرة . أما أن المصريين كانوا يولون خارج البيوت فظاهر من قول هيرودوت (٢ ، ٣٥) « وهم يأكلون خارج بيوتهم في الطرقات » . ومن قول ميلاد (١ ، ٥٧) « إنهم يتناولون طعامهم علناً خارج بيوتهم » أما عن عدد أيام العيد فيقول أميانوس ماركيلينوس (٢٢ ، ١٥ ، ١٧) « وبالرغم من أن التماسيح ضارية على اللوام ، فإنها تنبذ ضراوتها وتهدأ كأنها عقدت هدنة عسكرية طوال أيام العيد السبعة التي يحتفل فيها كهنة منف بميلاد النيل » .

(٢) راجع الهامش (١) ص ١٦ .

أن الانتصار سهل على قوم مخمورين يترنحون في شراهم^(١) . ففي ناحية قام نفر يرقصون على أنغام زمار^(٢) اسمر وقد تعطروا بما اتفق من عطور ، وكللوا جباههم بأكاليل من مختلف الورود . وفي الناحية الأخرى كان الحقد ضاريا . وقد بدأ السباب يدوى أولا ، وهو بمثابة نفي الاشتباك لنفوسهم الملتبئة . وعندئذ التحموا وقد تعادل الصراخ في الجبهتين وصالت الأيدي العزل بدلا من السلاح ، فقل من الأصداغ ما نجت من الجراح . ولم تخرج أنف واحدة سالمة من كل هذا الشجار ، ويمكنك أن ترى الوجوه مشدوخة الآن في الجبهتين جميعاً ، وقد تغيرت الآن سماتها وبرزت العظام من الأصداغ المشجوجة ، كما ترى قبضات أيديهم وقد تلطخت بالدماء التي سالت من العيون . ومع كل ذلك فهم يعتقدون أنهم يلهون ويشنون حرباً كلب الأطفال لأنه لم تسقط على الأرض جنث يطأونها . ولا غرو فما جدوى الدهماء في كل هذه الآلاف من المتشاجرين ، إذا كانوا كلهم سيعيشون ؟ ومن ثم اشتد الهجوم أكثر من ذي قبل فقد فتشوا الأرض عن الحجارة^(٣) وهي أسلحتهم الوطنية في الفتن وأخذوا يطوحون بها بأذرعهم . وهي ليست كالحجارة التي

(١) يقول هيرودوت (٢ ، ٧٧) « إن المصريين يتعاطون خراً مستخرجة من الشعير إذا لا يوجد في بلادهم كروم » . وقال بلينيوس (١٤ ، ٩) إن النبيذ السبيني (السمنودي) ينتج في مصر وهو يصنع من ثلاثة أنواع شهيرة من العنب تنمو فيها . وتحدث (١٤ ، ١٩) عن خمر البطح وفي (١٤ ، ٣٩) عن خمر الشعير .

(٢) قال هيرودوت (٢ ، ٢٨) في وصف عيد دبونيوس « ويتقدم الزمار الموكب » وقال استرابون (١٧ ، ١ ، ٤٤) وفي أيديوس يقدسون أوزيريس ، ولا يسمح في معبد أوزيريس لمغن أو لنافخ ناي أو عازف قيثارة أن يستهل الشعائر كما هي العادة في سائر طقوس الآلهة .

(٣) قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٥٣) « لقد صمد بتروفيوس وليس معه إلا حرسه من الجند عند ما حاجه جمع لا يحصى من السكندريين بوابل من الحجارة » .



المرحوم الدكتور وهيب كامل

كان يقذف بها تورنوس^(١) أو أياس^(٢) أو كالى ضرب بها ابن تيديوس^(٣) أيفياس على حقوه ولكنها تليق بأن تطلقها أيدي لا تشبه أيديهم فهي مولودة في عصرنا هذا . ذلك أن الجنس الإنساني بدأ حتى في عصر هوميروس يندوى فالأرض الآن تخرج رجالاً أشقياء ضعاف^(٤) ولذلك فإن كل إله يرمقهم يسخر منهم ويمقتهم .

« ولتعد الآن من هذا الاستطراد إلى قصتنا : فبعد أن ازدادوا بالمدد تجاسرت فئة منهم فاستلت السيوف وبدأت المعركة من جديد بالسهام الخطرة ، فما كان من سكان تثيرا المجاورة ذات أحراش النخيل الظليلة إلا أن لاذوا بالفرار مهرولين أمام هجوم أهل أومبي . وكان الرعب الشديد قد استبد بواحد منهم فأسرع في الجرى فعثر وقبض عليه . وما كان من الفئة المنتصرة إلا أن مزقته إرباً وأجزاء كثيرة حتى يكفي قتيل واحد الكثيرين ، والتمهته كله ونهشت عظامه . ولم ينضج بالسلق في أوانٍ ولم يشو على السفافيد فقد رأوا أن انتظار إنضاج النار سيكون طويلاً وثقيلاً فرضوا بالبحث نيةً .

وهو لا يلتبس للشعب عذراً فيما وصف فهو يقول (١١٩ - ١٢٨)
ولكن ما الخطب الذى دفع هؤلاء إلى هذا ؟ أى مجاعة طاحنة هصرتهم أو أى أسلحة مبيدة حصرتهم فاضطرتهم إلى الاجترأ على مثل هذا الإثم المشئو ؟

(١) تورنوس في « الإلياذة » لفرجيليوس هو ملك الروتوليين وقد قاوم غزو الطرواديين أشد مقاومة والإشارة إلى ١٢ ، ٨٩٦ - ٩٠١ .

(٢) أياس ابن تيلامون قائد السالامينيين في حصار طروادة . والإشارة إلى « الإلياذة » ١٨ ، ٧ م ، ٢٦٩ ، ١٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ .

(٣) ابن تيديوس هو ديوميديس وهو قائد أهل أرجوس في حصار طروادة . والإشارة إلى « الإلياذة » ٣٠٢ ، ٥ - ٣٠٥ .

(٤) كان اليونان ، والرومان من بعدهم ، يؤمنون بنكسة الجنس الإنساني وبأن العصر الذهبي كان أسبق المصور ثم تلاه العصر الفضي ثم البرونزي ثم عصر الأبطال وهو العصر الذى يمثلته شعر هوميروس ثم أخيراً العصر الحديدي وهو أسوأ وأحط العصور كلها .

فلو أن أرض منفيس جفت فهل كان في وسعهم أن يأتوا أكثر من هذا كيداً في النيل الذى أبى أن يفيض ؟

لا السمبريون^(١) والبريطانيون المرعبون^(٢) ولا السرماتيون^(٣) العتاة ولا الأجاثيرسيون^(٤) المخبولون قد هاجوا مثل هياج هذا الشعب الخانع^(٥) التافه الذى كان همه من قبل أن يضع أشرة صغيرة على قوارب من الخرف وأن يزود الزوارق الفخارية الملونة بمجاديف صغيرة^(٦) .

ونلاحظ أولاً أن القصيدة تفيض بالكراهية للمصريين . حقاً إن يونانيس كان يكره الأجانب عموماً من يونانيين^(٧) ويهود^(٨) وكلدانين^(٩) إلا أن كرده هؤلاء لا يبلغ مبلغ الحقد العارم الذى جعله يقف هذه القصيدة برمتها على هجاء مصر وأهلها . وإن هذا الحقد قد أعماه عن شيئين . أعماه عما كان يجرى في سائر البلاد من مخاز لم يذكر منها واحدة ، كما أعماه عما كان يدور في روما نفسها في « حلبات المصارعة » حيث كان الإنسان يتصدى للحيوان كما كان يتصدى لأخيه الإنسان ولا يخرج من حلبة المصارعة إلا قاتلاً أو مقتولاً .

(١) السمبريون Cimbrى شعب سلقى اتحد بالتيوتون وانحدروا جنوباً في أواخر القرن الثانى قبل الميلاد وهزموا الرومان مرات عديدة كان آخرها سنة ١٠٥ ق . م ولكنهم لحسن حظ الرومان لم يعبروا جبال الألب فيغزوا روما وإنما ساروا إلى أسبانيا . ولما رجعوا كان الرومان قد استعدوا لهم فهزموهم سنة ١٠٢ ، ١٠١ ق . م ونحوف الرومان منهم ضربوا بهم المثل في القسوة .

(٢) وصفهم هواتيوس في الأغاني (٣ ، ٤ ، ٣٣) « بأنهم قساة على الأجانب » .

(٣) هم سكان شرق روسيا وبولندا

(٤) وصفهم هيرودوت (٤٠ ، ١٠٠) بأنهم سكان ترانسلفانيا .

(٥) قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٥٣) « لا المصريون أنفسهم محبوبون للحرب ، مع أنهم كثر ، ولا القبائل المجاورة » .

(٦) قال استرابون (١٧ ، ٤١) « إن بعض الناس يتخذون مراكب من الفخار » .

(٧) انظر ٣ ، ٦١ ، ١١ ، ١٠٠ ، ١٣ ، ١٢١ .

(٨) انظر ١٤ ، ٩٧ .

(٩) انظر ٦ ، ٥٥٣ .

كل ذلك والناس من حولهم يتلذذون بما يشاهدون ويزجون فراغ يوم العطلة . وكانت في يونانيس حسنة لا تنكر هي كرهه للاستعمار واستغلال المحكومين . قال مخاطب والياً . « وعند ما تدخل آخر الأمر الولاية التي كنت تحلم مدة طويلة أن تكون حاكماً لها ، فضع لحاماً واحداً لنزقك ، وضع حداً أيضاً لجشعك وارثي لحال أهل الولاية المعلمين . فإنك لترى عظامهم قد جفت وخلت من نخاعها ، واحترم ما تأمر به القوانين . وما يوصى به مجلس الشيوخ^(١) . ولما طالبت ولاية أفريقية بمحاكمة ماريوس پريسكوس وانهمته بالرشوة وسوء الإدارة ، وأدين ونفى ؛ كتب يونانيس معلناً عطفه على الولاية وأهلها يقول « إن ماريوس في منفاه يجرع الخمر من الساعة الثانية بعد الظهر ويرتع في غضب السماء ، أما أنت أيتها الولاية فقد كسبت القضية ولكنك تبكين^(٢) » . وكانت مصر ولاية رومانية يغتصب قمحها وتستنزف مواردها ، وتثن تحت وطأة الاحتلال الروماني الغاشم ولكنها لم تحظ من يونانيس مع معرفته بأحوالها بكلمة رثاء أو عطف واحدة . مما يرجح كرهه للبلاد وتحامله في وصف أهلها .

ونلاحظ ثانياً أنه يهاجم الديانة المصرية هجوماً لا ينم عن كرهه لها ولمعتقداتها فحسب ؛ بل ينم عن خوفه وقلقه من تغلغلها في المجتمع الروماني^(٣) وتقويضها دعائم الديانة الرومانية . فهو يتهكم بها أشد التهكم ويقذع في هجاء كهنتها أفحش الإقذاع ويندد بمعتقداتها من الرومان تنديداً كله مرارة وتثريب . قال يتهكم بامرأة تقية ٦ ، ٥٢٦ - ٥٤١ « إما ما أمرتها أيو^(٤) البيضاء فسوف تذهب إلى

(١) انظر ٨ ، ٨٧ - ٩١

(٢) راجع هامش (١) ص ٩

(٣) راجع « عبادة إيزيس في إيطاليا » The Cult of Isis in Italy للدكتور محمد

سليم سالم « رسالة » ليقربول سنة ١٩٣٧ .

(٤) هي ابنة إيتاخوس ملك أرجوس أثار بها إعجاب زيوس وحفيظة هيرا ، فسخطها بقره . وللأسطورة أصول في الأساطير المصرية القديمة . وهي هنا تعبير عن إيزيس .

حدود مصر وتحضر مياه مستقاة من مروي^(١) الحارة لترشها على معبد إيزيس الذى يقوم بالقرب من الميدان الحربى لأنها تؤمن أن الأمر قد صدر إليها بصوت الآلهة نفسها . يا له من عقل وقلب تتحدث إليه الآلهة بالليل ! ولذلك فإن المرتبة الأولى والعليا لتولى لأنوبيس^(٢) الذى تحيط به طائفة لابسى الكتان^(٣) حليق الرعوس^(٤) . وهو^(٥) يسخر من الباكين وهو يجرى . وأنوبيس هو الذى يحصل لها على الصفح إذا لم تمتنع زوجة عن الجماع فى الأيام التى ينبغى أن ترعى قداسها . وهو الذى يقتص قصاصاً كبيراً إذ ما تدنس فراش الزوجية أو إذا رثى الثعبان الفضى يحرك رأسه . وإن دموعه وهمساته المدروسة لتدل على أن أوزيريس سوف لا يأبى الصفح عن الحرم . وذلك طبعاً بعد أن يرشى بأوزة سمينية وشظيرة من كعكة التضمحية . « والحق أن إيزيس قد غزت قلوب أهل روما فامتلاّت معابدها هناك بالنذور وقد رأى يونانيس فى النذور الذى ملأّت معابد روما شاهداً على أن « إيزيس هى التى تقيم أود مصورينا »^(٦)

(١) لقد أثبتت الحفائر التى قام بها جارستانج وسايس وجريفيث وأخرجوا نتائجها فى كتابهم Meroe ، لندن سنة ١٩١١ ؛ أن معبد إيزيس فى مروي كان يحتوى على أدوات للظهور من العصر اليونانى الرومانى . ما يؤكد أن بعض عباد إيزيس كانوا فعلاً يزورون معبدها هناك . راجع G. Highet المصدر نفسه صفحة ٥٤٢ - ٣٤٣

(٢) فى الديانة المصرية القديمة هو حادى الموتى وكان يصور برأس كلب وقد عاون إيزيس فى البحث عن جثة أوزيريس ومن هنا كان دائماً فى ركابها .

(٣) قال هيرودوت (٢ ، ٣٧) إن ملا بس الكهنة المصريين من الكتان .

(٤) قال هيرودوت (٢ ، ٣٧) « ويخلق الكهنة كل أجسامهم كل يومين » .

(٥) أى الكاهن الذى يمثل أنوبيس فيلبس قناعاً يصور كلباً يجرى . والباكون هم الذين يحدون على موت أوزيريس . قال هيرودوت (٣ ، ٦١) يصف العيد فى مدينة بوسيريس « يضرب الرجال والنساء جميعاً صدورهم وهم آلاف كثيرة جداً من الناس ، وليس لى أن أذكر على من يحدون » .

(٦) انظر القصيدة ١٢ ، ٢٤ - ٢٨

وقد حاول أن يحطم نفوذ إيزيس في روما فصور معابدها مباءت للخنا والفجور فإذا إزينت عادة فلأن عشيقها ينتظرها في إحدى الحدائق أو بالقرب من محراب « إيزيس القوادة »^(١). وإذا تعرض أحد أتباعها للغواية فليس في عبادتها عاصم « ومن الناس من يخشى أن يكون العقاب في إثر الجريمة ، وهو يؤمن بالآلهة ولكنه مع ذلك يأثم ويجادل نفسه على هذا النحو . لتتصرف إيزيس بيدني كما تشاء ولتطحن ببصري بناقوسها Sistrum المرعد ما دمت حتى بعد فقدان بصرى أحفظ بالأموال التي خنت الأمانة فيها »^(٢) .

والحق أن الديانة المصرية كانت تجدد في روما مرتعاً خصيباً وكان نفوذها يتزايد فيها إلى حد يزعج أهل الفكر من الرومان ، فكانوا يشنون على مصر ودياناتها حملة من الدعاية تخفف من نفوذها إلى حين . وقد حدث هذا بشكل واضح مرتين ، أولاهما بعد موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق . م والثانية بعد زيارة الإمبراطور هادريان لمصر سنة ١٣٠ ب . م .

فقد كان من تأثير كليوباترة على قيصر وزيارتها لروما ودعايتها لمصر أن انتشرت عبادة إيزيس في روما إلى حد اضطرمعه «الحكم الثلاثي» أن يقيم معبدًا لإيزيس في روما سنة ٤٢ ق . م استرضاء للجماهير واجتذاباً لعطفهم^(٣) ونفشت عبادتها في روما حتى أن كهنتها ومريداتها برزن في أدب العصر الأغسطي^(٤) فلما كانت موقعة اكتيوم نفيت إيزيس خارج أسوار روما^(٥)، وشتت حملة للدعاية ضد مصر وديانتها^(٦) . وكانت السياسة العامة هي محاربة

(١) انظر القصيدة ٦ ، ٤٨٧ - ٤٩١

(٢) » » ١٣ ، ٩٠ - ٩٤ .

(٣) راجع ديوكاسيوس ٤٣ ، ٢٧ ، ٤٧ ، ١٥

(٤) راجع كاتولوس ١٠ ، ٢٦ ، وتيبولوس ١ ، ٣ ، ٢٣ وبروبرتيوس ١١ ، ٣٣

(٥) راجع ديوكاسيوس ٥٣ ، ٢

(٦) راجع فرجيليوس « الإنيادة » ٨ ، ٦٨٥ - ٧١٣ وهوراس الألفاني ١ ، ٣٧

٤ ، ٩ وبروبرتيوس ٣ ، ١١ ، ٢٩ - ٥٨ وأوفيد يوس « التناسخات » ١٥ ، ٨٢٦ - ٨ ولوكانوس « فارساليا » ٨ ، ٥٤١ - ٥٥٠ .

نفوذ الديانة المصرية في روما، طوال حكم الأمبراطورين أغسطس وطيبيريوس^(١) حرباً فترت في عهد الإمبراطورين كاليجولا وكلوديوس. فلما جاء نيرون عاد نفوذ الديانة المصرية من جديد^(٢). وكان الإمبراطور أوتو (سنة ٦٩ م) أول من اشترك فعلاً في إقامة الشعائر المصرية من الأباطرة^(٣). واتخذ الإمبراطور فسباسيانوس (٦٩ - ٧٩ م) متهمجداً خاصاً في معبد سيرابيس^(٤) وكانت عبادة إيزيس أثناء الصراع العنيف الذي قام سنة ٦٩ م نشطة حتى أن دوميتيانوس استخفى في زي أحد كهنتها^(٥) وقد رد إليها هذا الصنيع بأن أعاد بناء معبدها في الميدان الحربي سنة ٩٢ م على نطاق واسع^(٦). أما الإمبراطور دادريانوس فقد أولع بمصر وديانها وآثارها فأطال فيها إقامته واختلط بعلماء المتحف في الإسكندرية وأقام في قصره في تيبور (تيفولي) جناحاً مصرياً سماه كالإيوس كانت الروائع الفنية التي اشتمل عليها مزيجاً من الفن المصري الخالص والفن الروماني^(٧). وتبع الناس في روما هوى الإمبراطور وأصبح الحديث عن مصر والأخذ بتراثها زي العصر الشائع في روما حتى لقد بلغ عند بعض الناس مبلغ الهوس، فصار لمنجميها وعرافيها

(١) راجع ديوكاسيوس ٥٤ ، ٦ ، ٦ ، وتاكيوس «الحواليات» ٢ ، ٨٥ ، وسينيكا «الرسائل» ١٠٨ ، ٢٢ وسيوتونيوس «حياة طيبيريوس» ٣٦ .

(٢) راجع تاكيوس «الحواليات» ١٥ ، ٣٦ وسيوتونيوس «حياة نيرون» ٤٠ ، ٤٧ .

(٣) راجع سيوتونيوس «حياة أوتو» ١٢ .

(٤) راجع سيوتونيوس «حياة فسباسيانوس» ٤ ، ٥ ، ٧ وتاكيوس «التاريخ» ٨١ ، ٤ .

(٥) راجع تاكيوس «التاريخ» ٣ ، ٧٤ وسيوتونيوس «حياة دوميتيانوس» ١ .

(٦) لقد حضر تيتوس Titus حفل تنصيب العجل أبليس في مصر . راجع سيوتونيوس «حياة تيتوس» .

(٧) راجع Thomas Ashby "Hadrian's Villa at Tivoli" لتوماس أشبي .
في كتاب : Wonders of The Past (نشرة J.A. Hammeston سنة ١٩٣٨) الجزء الثالث ص ٩٣٧ - ٩٤٧ .

مكانة ملحوظة في المجتمع الروماني^(١) . وكانت النساء في روما يستشن المنجم المصرى بتوزيرس قبل الإقدام على عمل من الأعمال^(٢) . فلا غرو أن ينبرى شاعرنا ليناهض هذا النفوذ الأجنبي الذى يجتاح روما ويكاد يقضى على تقاليدھا الدينية والاجتماعية . ولا جناح علينا إذا نظرنا إلى قصيدته الخامسة عشر كلها أعلى أنها ضرب من ضروب الدعاية ضد مصر وديانتها .

ونلاحظ ثالثاً أن يونانليس لم يكن في مصر وقت حدوث المعركة التى وصفها . فهو يقول إنها حدثت في عهد قنصلية يونكوس أى في سنة ١٢٧ م . وفي هذه السنة عينها كان الشاعر في روما وقد كتب يداعب صديقه الذى وقع فريسة لحتال يقول « لقد جاوزت السنين إذ ولدت في عهد قنصلية فونتيوس^(٣) . وقد كان فونتيوس كاييتوقصلا سنة ٦٧ م . فلا بد إذن أن يونانليس كان في روما سنة ١٢٧ م . وقوله في القصيدة « كما رأيت بنفسى » لا ينصب إلا على الموائد الممدودة التى رأى مثلها فيما مضى على المعركة التى دارت . وإذن فكل ما يرويّه الشاعر من أنباء المعركة ووصفها وتفصيلها يجب أن يؤخذ بالحذر الواجب مع من ينقل عن سماع .

نحن لا نشك في قيام معركة بين أهل دندرة وأهل نبط والبلدتان متجاورتان وقد أقامت دندرة حولها سوراً لتقاء لشر جيرانها^(٤) والأوراق

(١) لقد كان المنجمون المصريون يشون في ركاب الإمبراطور أوتو والإمبراطور ماركوس أوريليوس ويصحبونهما أينما ارتحلا . انظر تاكيوس « التاريخ » ١ ، ٢٣ وديوكاسيوس . ٨ ، ٧١ .

(٢) انظر يونانليس (القصيدة ٦ ، ٥٨٠) فإذا رقدت وقد ألم بها المرض لا تتصور أن ساعة أصلح لتناول الطعام إلا الساعة التى يوحى بها بتوزيرس .

(٣) راجع هامش (٣) ص ١٠ .

(٤) انظر O. Highet المصدر نفسه ص ٢٩٠ ، وراجع هامش (٢) ص ٢٢ .

البردية تحدثنا عن قيام أمثال هذه المعارك بين البلدان المتجاورة^(١)، والمؤرخون القداماء يشيرون إليها بين الحين والحين^(٢)

وإنما الذى نتساءل عنه هو طبيعة هذه المعركة . فقد روى بلوتارخوس أنه عند ما قامت المعركة بين أهل أوكسيرنخوس وأهل كينوبوليس تدخلت الجيوش الرومانية لفضها وإعادة الأمن . ولما قامت المعركة بين أهل منفيس وهليوبوليس فيما تقول « التواريخ الأوغسطية » يمم الإمبراطور هادريانوس وجهه شطر مصر لإعادة الأمور فى نصابها . وهذه معركة تقوم بين بلدين قريبتين من قفط ، وقفط معسكر من معسكرات الجيش الرومانى فى مصر^(٣) فلماذا لم يتدخل الجيش لفض المعركة ؟ هل كان قائد الكتيبة الرومانية المرباطة فى قفط أخبر بالعادات المصرية من السائح الرومانى الذى تصادف مروره فى هذه المنطقة ونقل ما رأى إلى يونانيس فى روما ؟ وقد بدأت المعركة بقذف الحجارة فأحرى بالرومانى الغريب أن يبتعد عن معتركها فهو فى الأكثر لم يشهداها عن كثب ، بل رأى أطرافاً منها ونقلت إليه أطراف فجمع شملها ورواها للشاعر الذى صاغها بما يتفق مع مراميه فى الدعاية ضد مصر بما يتقنه من أفانين المبالغة والتهويل ، يعينه عليهما ما يلقيه فى حنايا وصفه من لمسات واقعية يستقيها من إقامته فى مصر . والذى يعطينا الآن هو ماذا رأى الراوى فعلاً .

إن نبط أقدم مركز لعبادة الإله ست . وقد اكتشف فيها پترى سنة ١٨٩٥ جبانة قديمة ومعبداً فيه صلوات كثيرة موجهة إلى ست نبطى

(١) راجع بردى القاهرة ١٠٣٥١ ، ١٠٣٧١ وبردى أوكسيرنخوس ١٨٣١ ، ١٨٥٣ ، ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ . وانظر كتاب "Life and Letters in the Papyri" G. Wienter سنة ١٩٣٣ صفحة ١٧ - ١٨ .

(٢) انظر بلوتارخوس « إيزيس وأوزيريس » ٧٢ والتواريخ الأوغسطية Historia Augusta فى حياة هادريانوس . وراجع J. G. Milne المصدر نفسه ص . ٣٤ ، ٤٣ .

(٣) راجع J. G. Milne المصدر نفسه ص ١٧٧

أى ست الإله الخاص بنبط أوست إله النبطيين وهو ابن نوت إلهة السماء وسيد مصر العليا . ولعل ست كان أقدم إله حظى بلقب سيد فلا بد إذن أن يكون أتباعه ومريئوه قد فرضوا إلههم في مبدأ العصور التاريخية على الأقاليم الجنوبية وجعلوه أول ملك لمصر العليا . ولم يكن ست من آلهة النور ، بل كان إلهاً من آلهة الظلام والشر^(١) . وهو أعدى أعداء الثلاث الأقدس إيزيس وأوزيريس وحورس .

أما إيزيس - في هيئة هاتور - وهى الأم الكبرى وزوج حورس الأكبر فكانت تعبد في دندرة في معقل عبادة خصمها ست وهو في صورة التمساح سبك^(٢) .

ولقد هيأت الطبيعة للإله ست أن يتعالى على آلهة النور ، فلم يكن للنور أن يتغلب على الظلمة ، ولا للنهار أن يتغلب على الليل ، وهذا الكسوف والخسوف واحقاق القمر كلها شواهد على غلبة ست . هذه كلها كانت هجمات من الإله ست ضد العين اليمنى (الشمس) والعين اليسرى (القمر) للإله حورس . وقد كان المصريون يسمونها معارك السماء (خنوم پت) وكان حورس وست يسميان « المتحاربان » وكان من طبيعة هذه المعارك وهذه الحرب ألا يتغلب فيها الواحد على الآخر بل هى سجال بينهما فيتعادلان فيها كما يتعادل الليل والنهار^(٣) . ولقد كانت هذه الحروب والمعارك موضوعاً محبباً في الأدب الأسطوري المصرى القديم . قال بلوتارخوس « يقول المصريون طبقاً لما يعتقدون ، إن طيفون (= ست) يضرب عين حورس مرة ومرة ينتزعها ويبتلعها ، وعندئذ يعطيها ثانية للشمس . وهم يرمزون بالضربة إلى احقاق القمر كل شهر وبالاتزان يرمزون إلى خسوفه الذى تداويه الشمس بالإشراق عليه فور خروجها من ظل الأرض^(٤) .

(١) انظر Moret المصدر نفسه ص ٦٨ - ٦٩

(٢) المصدر السابق ص ١١٠

(٣) المصدر السابق ص ٧٠

(٤) إيزيس وأوزيريس ، ٥٥

فإذا ما رجعنا إلى القصيدة الخامسة عشر ونظرنا إليها في هذا الضوء وجدنا أن المعركة قد قامت أثناء العيد ، يوم مد أهل دندرة الموائد أمام المعابد ، وقاموا يرقصون على أنغام المزمار ، وشربوا الخمر حتى ثملوا وتعطروا وكللوا رؤوسهم بالأزهار ، ثم حدث الهجوم من أهل أمي أتباع ست ولكن الحرب بدت للشاهد الراوى كأنها من لعب الأطفال ، ثم استلت السيوف فهرول أهل دندرة متراجعين أمام أهل أمي أى رجع أتباع إيزيس أمام جحافل أتباع ست فهي أقرب إلى التمثيلات الدينية فى ملابسها وظروفها كما تبدو من وراء الحجاب الكثيف الذى أسدلته عليها أغراض الدعاية ضد مصر والنيل من سكانها . قد يكون أحد أهل دندرة قد سقط فعلا على الأرض فوق وقع تحت وطأه أقدام المهاجمين ، ويحتمل أن يكون هذا حلقة من حلقات التمثيلية وقد جاء فى وصف المعركة « ومع كل ذلك فهم يعتقدون أنهم يلهون ويشنون حرباً كلب الأطنال لأنه لم تسقط على الأرض جثث يطاونها » .

قال هيرودوت يصف تمثيلية دينية من هذا الطراز فى پاپريميس : « حينما تخرج الشمس للمغرب تتفرغ طائفة قليلة من الكهنة لتمثال الإله ، أما أكثر الكهنة فيقفون فى مدخل المعبد ممسكين بعضى خشبية ، ويقف قبلهم رهط آخر من الرجال يوفون نذورهم وهم يزيدون على الألف عدداً ، ويمسكون بعضى خشبية مثل الآخرين ، أما تمثال الإله فيوضع فى مقصورة صغيرة من الخشب المذهب وينقل فى ليلة العيد إلى موضع مقدس آخر . أما الفئة القليلة التى كانت قد تركت للعناية بالتمثال فتجر مركبة ذات أربع عجالات فوقها المقصورة وقد وضع فيها تمثال الإله . ويحاول الكهنة الواقفون بمدخل المعبد أن يمنعوا من الدخول فيخف الذين يوفون النذور لنجدة الإله ويضربونهم ، فيدافع هؤلاء عن أنفسهم وهنا تحمى معركة العصى ، وتشج رؤوس ويبدولى أن الكثيرين يموتون بجراحهم ولو أن المصريين ينفون أن أحداً يموت من جرائها^(١) » .

(١) كانت فى شرق الدلتا ولعلها كانت جزءاً من تل الفرما .

هذا وصف لمعركة ساقه هيرودوت^(١) قبل وصف يونانيس للمعركة بين دندرة ونبط بخمسة قرون أو تزيد ، كان المصريون « يقيمونها تكريماً للإله أريس^(٢) » فيما قالوا له . وقد استعملت فيها العصي وشجت رؤوس ، وسالت دماء وكان يبدو للغرباء أن ممن يشتركون فيها من يموت بجراحه ، ولكن المصريين وهم أخبر بدينهم وطقوسهم نفوا هذا الوهم أو حاولوا أن ينفوه من ذهن هيرودوت .

كل هذا يحملنا على القول بأن مارآه من روى الخبر ليونانيس لم يعد أن يكون تمثيلية دينية اشتركت فيها جماهير غفيرة كالتى اشتركت فى الحفلة الدينية التى وصفها هيرودوت « وهم يزيدون عن الألف عدداً » واستعملوا فيها الحجارة والسيوف والسهام ، كما استعمل أهل پاپريميس العصي الخشبية ، ولعل من اشتركوا فى التمثيلية الدينية التى وصفها يونانيس كانوا يوفون بعض ما عليهم من ندور مثل إخوانهم الذين اشتركوا فى معركة پاپريميس ، وشجت الرؤوس هنا كما شجت هناك ، وسالت الدماء هنا كما سالت هناك ، وخيل لهيرودوت أنه لا بد قد مات بعض من كانوا يوفون الندور بالاشتراك فى المعركة ولكن أهل البلاد طمأنوه ونفوا أن أحداً يموت من جرائها . أما يونانيس أطلق العنان لخياله بعد ما سمع من وصف المعركة فأنها بما ظن هيرودوت من أن معركته لا بد منتهية إليه من موت بعض من اشتركوا فيها ، وقد حمله كرهه للمصريين ونفوره من ديانتهم وتوغل نفوذها فى روما على تصوير ما صور من أكلهم اللحم المصرى الصريح .

وهيب طام

(١) هيرودوت ٢ ، ٦٣

(٢) أريس يقابل الإله شو عند المصريين .